الرجل

ليس لشكسبير صورة مرسومة في أيام حياته، وكل ما يرى اليوم من الصور والتماثيل التي تختلف فيها الملامح والأوضاع فهو نسخ منقولة من تمثاله النصفي على ضريحه أو من صورة صنعت له بعد موته بسنوات، وهي صورة دروشوت Droeshout التي ظهرت في الطبعة الأولى من مجموعة رواياته وقصائده.

وصانع هذه الصورة مارتن دروشوت (١٦٠١ - ١٦٥٠م) مهندس فلمنكي نزل بلندن مع أبويه ولم تكن سنه تزيد على خمس عشرة سنة حين مات شكسبير في سنة ١٦١٦م ومضت ست سنوات بعد موته حين صنع الصورة في أواخر سنة ١٦٢٢م قبيل ظهور الطبعة الأولى من المجموعة.

والمفهوم أنه استعان في استحضار ملامح الصورة برسم تخطيطي تممه بما وعته ذاكرته وراجعه فيه زملاء الشاعر وعارفوه، وجاءت الصورة على ما يظهر مطابقة لقسمات الوجه وتركيب الجسم غاية المستطاع، لأن بن جونسون الشاعر - أعرف الناس بشكسبير - كان يرتضيها ويلمح فيها صفات صاحبه وزميله، وقد كتب تحتها أسطرًا منظومة قال فيها يخاطب القارئ: «إن هذا الرسم الماثل أمامك يحكي فيه الرسام صورة شكسبير الرضي الوديع، وإنه

obeikandl.com

وليم شكسبير

ليجتهد اجتهاده أن يبارى الطبيعة فى صنيعها، ولكنه لو استطاع أن يرسم ذكاءه كما رسم طلعته لفاقت الصورة الكتاب، فأما وهو غير مستطيع فهاك صورة ذكائه فانظر إليها فى حروف هذه الصفحات»...

وقد حاول الرسام جهده أن يودع صورته لمحات من صفات النفس كما تنم عليها ملامح الوجوه، فوضحت فيها صفات اللطف والوداعة التى قدمها بن جونسون على سائر صفاته، وبدا فيها مع سماحة الطباع شىء من الجنوح إلى العزوف والاحتجاز فى غير جهامة، وشىء من الاعتزاز فى غير صلف أو مناجزة، كأنها تنبيه خافت يهمس ولا يجهر، ولكنه لا يهمل ولا يأذن للناظر إليه أن ينساه.

ولا بد أن يكون شكسبير رضىَّ الخلق حقًا ليذكره بن جونسون بهذه الخصلة قبل سواها من عامة خصاله، فإن بن جونسون لم يكن بالرجل الذى يرضيه ما يرضى غيره من شمائل الطيبة والوداعة، وقد غضب مرة من أحد الممثلين فدعاه إلى المبارزة فقتله وأوشك أن يؤخذ به على أعواد المشنقة لولا سابقة له فى الحرب ودالة له على بعض العظماء، وكان يلوم من يحسب إصابته بالمرض خبرًا دون أخبار الزلازل وكوارث الطبيعة، وبينه وبين شكسبير منافسة قوية تثيره عليه ولا ترضيه عنه لو لم تكن سجية السماحة والمودة فيه أقوى من دوافع المنافسة والعداء، بل لا بد أن تكون المودة فيه قوة لا تقهر ولا

يســهل نكرانها أو إغفالها فى معترك الخصومة والمزاحمة بين أهل الفن وأصحاب المسارح ونظراء الأدب والوجاهة فى العاصمة والريف.

وقــد ارتفع فى شــهرته إلى الذروة التى تغرى بالحســد والغيرة فى مجالــه وفى غير مجالــه، ولكنه لم يدع لأحد من منافســيه ذريعة للتجنى عليه، ولم يستدرجه أحد قط إلى مقابلة الخصومة بالخصومة ومجاوبــة الذم بالذم والوقيعة بالوقيعة، وخرج من حرب الشــهرة الزبون بعدو واحد متهم فــى عداوته وصداقته، هاجمه عند زملائه وأصدقائــه وبالغ فى إغرائهــم بتصديق مثالبــه وإقناعهم برأى فى الرجل مثل رأيه، فلم يكن لحملته صدى غير الإعراض.

ويشــاء القدر الســاخر أن تبقى هذه الحملة العنيفة بعد ثلاثة قــرون ليرجع إليها طلاب الشــهادة لفضل الشــاعر وكفايته وصدق دعــواه، فهى اليوم حجة من الحجج المقنعة التى تقوم عليها سمعة شكســبير وتنتفى بها عنه شــبهات الادعاء والانتحال، وتجد من ثمة مكانها فى ســيرته بين كفتى الثنــاء والانتقاص، لترجح بها كفة الثناء.

فى الفصل الثالث من رواية هنرى الســادس التى ألفها شكسبير كلمــة يتحدث فيها عن قلب نمر فى إهاب امرأة، وهذه هى الكلمة التــى اســتعارها روبرت جرين – منافس شكســبير فــى التأليف المســرحى – ليقول إن قلب النمر إنماً هو ذلك القلب الذى يكمن فى إهــاب ممثل يظن أنه الوحيد الذى «يهز الســتار» ويومئ بذلك إلى

اسم شكسبير الذى يتألف - كما تقدم - من كلمتين بمعنى «هزاز الرمح»... ثم يحذر «جرين» زملاءه الشعراء من هذا الدعى الذى داخله الغرور فخيل إليه أنه ينظم الشعر المرسل كأقدرهم وأبرعهم فى صناعة القصيد.

ولم تكن هذه الحملة أولى الحملات التى شنها جرين على الممثلين الذين يرفضون رواياته أو يقبلونها ولا يحفلون بآرائه فى تمثيلها وإخراجها وتقدير حقوقها، فإنه أطال الحملة عليهم فى جملتهم وأفرد أناسًا منهم بأسمائهم، وختم هذه الحملات المتواترة عليهم بحملته الأخيرة قبيل وفاته (١٥٩٢م) على شكسبير.

ويستوى شكسبير وزملاؤه الممثلون فى حملات جرين وشكاياته، ولكنه يزيد عليهم بأنه ممثل ومؤلف وناجح فى التمثيل والتأليف وملحوظ المكانة بين الممثلين والمؤلفين، ولا لوم عليه ولا على زملائه فيما أصابهم من جرين أو فيما أصابه منهم؛ لأنه قد أصيب فى الواقع من سوء فعله وخلقه وخابت آماله بعد أن تعلم فى جامعة كمبردج وتخرج فى جامعة أكسفورد فلم يدرك شأو النخبة المفلحين، ممن اشتهروا باسم أذكياء الجامعة ولم يدرك شأو الأدباء الذين انقطعوا للتأليف، وابتلى بداء الإدمان وعِشرة المدمنين فأتلف ما عنده من قليل المال وتزوج على طمع فى مال امرأته، فأنفق ما عندها وطردها ليعيش مع امرأة مريبة تنصب الحبائل للمخدوعين من طلاب اللعب والشراب، وقد جار المسكين على بدنه وعقله بالإدمان والإفراط،

وقضى نحبه فى الرابعة والثلاثين على أثر أكلة فاسدة أكثر فيها من أصناف الأنبذة والخمور، وكتب حملته الأخيرة وهو بهذه الحال من السقم والخبل والقنوط.

وأصدق ما فى هذه الحملة الجائرة ما أثبته الكاتب على غير قصد منه فى رسالته إلى زملائه الشعراء، فإنه لم يقصد أن يثبت أن شكسبير هو مؤلف هنرى السادس وغيرها من الروايات التى تشترك معها فى موضوعها، ولم يقصد أن يثبت أن شكسبير كان له عمل فى المسرح غير التمثيل والإخراج، وهو كتابة الشعر المرسل ليجارى به أكبر شعراء زمانه غير قانع فيه بمنزلة التابع المسبوق حتى فى سنة ١٥٩٢م التى تعد من سنوات الابتداء فى حياته الأدبية، ولو أن شكسبير كان يدعى روايات المؤلفين المستترين لما خفى ذلك على رجل مثل جرين يخالط المسرحيين، ويخالط أذكياء الجامعة، ويخالط المؤلفين وثراثرة المجالس الأدبية، ولا يفوته فى أدوار الرواية من يوم كتابتها ونسخها وإخراجها وتلاوة مناظرها فى دور التجربة وعثرات شكسبير فى النطق بألفاظها أن يكشف سرها الذى لا يخفى فى جميع هذه الأدوار، ولا شك أن تأليف هذه الروايات قد كان بعيدًا من كل مظنة وكل واردة من واردات الخواطر حتى غاب أمره عن الحاسد الشانئ الذى يتصيد المزاعم لاتهام غريمه بالادعاء والانتحال.

فلم يقصد جرين أن يقيم هذه الحجة لتثبيت سمعة شكسبير وإدحاض التهمة عنه أو التشكيك فيها وإبعادها من ظنون التابعين،

كما كانت بعيدة من ظنون المعاصرين، ولكنها حجة تسبق إلى الخاطر علـى غير قصد من جرين وممن يقرأون حملة جرين؛ إذ ليس من اليسـير على العقل أن يصدق أن ممثلًا غير أهل للتأليف يفاجئ القوم بالروايات من أرفع طراز فى عصره، ويدعى أنه ألفها وهو لا يحسن فهمها ولا يحسن إخراجها، ثم تفوتهم هذه المفاجأة ويستعصى عليهم أن يلحظوها وينقّبوا عن أسرارها، وهى ليست مما يطول خفاؤه فى رواية بعد رواية بين أدوار الكتابة والمراجعة والتوزيع والإخراج والإلقاء، وإن خفى ذلك على النظارة فلن يخفى على الممثل الخبير بصناعته وراء الستار، ولن يخفى على النبيل صاحب المسرح إذا كان المؤلف المستتر نبيلًا من أقرانه يتخطاه إلى فرقته المسرحية ليعرض على يديها عملًا لم يأذن به ولم يطلع عليه.

لم يقصد جرين هذا ولم يقصد كذلك أن يقول إنه كان يخاطب أناسًا يعتقدون فى شكسبير غير اعتقاده ويحذرهم من صاحب يركنون إليه ولا يحذرونه، ولكنهم سمعوا هذا التحذير من الممثل الذى يخفى بين جوانحه قلب نمر فلم يصدقوه، وظل أحدهم – وأكبرهم – بن جونسون يركن إلى ذلك القلب ويصفه بعد نيف وعشرين سنة بالسلامة وبراءة الخلق من النفاق والمداجاة.

ويوشك أن نتعلم من سيرة شكسبير أن عفو الثناء أدل على الأقدار وأولى بالإصغاء إليه من الثناء المقصود، لأن عفو الثناء حكم عام يسرى بين الناس كلما خلا من التشيع والغرض، وقلما سلم

الثنـاء المقصود من نزعة مذهب أو مسحة هوى يغلب على قائله، وإن كان من الصادقين المصدقين.

وأخلى ما يكون الثناء من الغرض الخاص حين نستخلصه من مضامين النوادر والأحاديث ولا نعلم من قاله كأنه نبت وحده من بداهة عامة لا تتوقف على وجهة شخصية أو على فكرة مذهبية، وفى هذه السيرة أشتات من النوادر والأحاديث التى جرت هذا المجرى، وجاز أن تحسبها من الإشاعات المرسلة والأساطير الموضوعة التى تدل برموزها ولا تدل بوقائعها وأسانيدها.

زعموا أن شكسبير وصل إلى لندن بغير زاد وبغير معين فقاده حبه للتمثيل إلى باب المسرح ولبث يتردد عليه بغير عمل يستطيعه فى داخله، أو فى خارجه، غير حراسة الخيل لمن يرتادونه من النبلاء والنبيلات، ولم يلبث غير قليل حتى لفت إليه أنظار الرواد فجعلوا يسألون عنه ويتفقدونه ولا يسلمون خيلهم إلى غيره إلا إذا كرروا السؤال عنه فلم يجدوه، وتكاثر الطلب على حراسته فاستعان بصبيان له يجيبون النداء عليه، ويقول حاضرهم لمن يسأل عن «ولد شكسبير»: أنا صبى شكسبير!

وكتب الدكتور صمويل جونسون علامة زمانه هذه القصة نقلاً عن مصدرها الأول الذى ظهر فى سنة ١٧٥٣م ولم يرجع بها إلى مصدر قبل ذلك، ولكن النقاد من بعده تتبعوا القصة إلى مصادرها المحتملة ففهموا أن راويها سمعها من صديق، عن الأسقف نيوتن عن الشاعر

بوب، عن المؤرخ راو مترجم شكسبير، عن بترتون، عن سير وليام دافنتات معاصر شكسبير، ولم يجدوا القصة في ترجمة راوٍ كأنه استضعف سندها فلم يثبتها فيما نقله عن الرواة الثقات.

وهذه الأحدوثة قد تكون خبرًا واقعًا وقد تكون إحدى الأحدوثات الموضوعة التي تضاف إلى تراجم المشهورين، ولكنها تروى لتقول لنا إن شكسبير كان على استعداد بفطرته لكسب الثقة والحمد ممن يعرفونه ويعاملونه، وإن له كياسة يصحبها النجاح والتفوق فيما تصدى له من عمل وإن صغر وهان.

وهذا ما نعنيه بعفو الثناء: ثناء لا يأتي بشيء من عنده ولا يخلق الواقع الذي يثني عليه، ولكنه يكرره في صورة من صور الخيال تعلق به كما تعلق الحواشي والأهداب بالصورة التي تبعث من شهادة الحس ومن تحصيل الحاصل، فهي توحي إلى الأذهان أن تعيد أوصافها بلون من ألوان الخيال.

فالنجاح والتفوق في حياة الممثل شكسبير آية من آيات هذا الاستعداد العجيب لأنه نجاح لم يحرم صاحبه حظاً من الثقة والحمد بين زملائه المتخلفين عنه، ومنهم من ذهب إلى نهاية الشوط يوم كان هذا الطارئ على الفن يخطو على خشبات المسرح خطو المبتدئين المتطفلين، ولعله لم يبلغ في دور من الأدوار غاية شوطه، ولكنه لم يجهل مداه من هذه الصناعة، ولم يخطئ فيما هو قادر عليه وما هو عاجز عنه من أشواطها، فأعطاه التمثيل قصارى ما يعطيه من علمه وعمله وجدواه.

ونجح شكسبير وتفوق فى منافسة أخطر من منافسة الزملاء على خشبة المسرح، وهى منافسته لأكبر الزملاء فى تأليف المسرحيات، ونجاحه على الرغم من ذلك فى كسب الثقة والحمد منهم، وأكثرهم قد سبقوه إلى التأليف كما سبقوه فى مؤهلات الشهرة والدعوى، فمضى فى التأليف قدمًا وتخلف وراءه أعلام مبرزون من طبقة مارلو وفلتشر وبوشى وناش ودرايتون ولايلى وبيل وكيد وبن جونسون وروبرت جرين، وفيما عدا هذا الأخير لم ينقم عليه نجاحه وتفوقه أحد من هؤلاء الأعلام، ولم نسمع من شكسبير كلمة تشف عن نقمة من هذه المنافسة أو ضيق بتكاليفها.

وليس شكسبير المؤلف بصاحب الفضل فى هذه الصلة النادرة بينه وبين زملائه، فإن الإبداع فى التأليف لم يكن يومًا من الأيام ضمانًا للحمد والثقة بين المتنافسين، وإنما الفضل لخليقة فى الرجل تكسر حدة الغيرة وتفلُّ سلاح العدوان وتوصد باب اللجاجة فى الخصومة على من يفتحه بغيًا عليه.

تلك - فيما نحسب - خليقة الجد والدأب مع ثقة بالنفس وشعور بالمناعة يدعوه إلى المسالمة ولا يستجيش فيه ثورة النضال ما دام فى أمان من قدرته على عمله.

وخليقة الجد والدأب تشغله ولا ريب عن صغائر الكيد ولغو الفضول فى غير طائل لأن قرابة أربعين رواية وديوانًا فى نحو عشر سنوات عمل شاغل يضاعفه عمل التمثيل والإدارة وتدبير أمر الأسرة

التى يعولها فى أزمتها، ولكنه عمل شـاغل له لا يشـغل منافسـيه عــن الافتيات عليه وتضييع وقته، لــولا عصمة من مناعته وثقة منه بنفسه وثقة منهم بفضله، وعزوف ينحيه عن طريق الثرثرة واللغط، وييئسهم أن ينالوا منه بعدوان لا يضيره ولا يسلمون من مذمته.

وربما كان للرجل شــأن غير هذا الشأن لو أن رسالته فى الحياة كانت رســالة دعوة إلى عقيدة جديدة أو نقض لفكرة مخالفة، أو لو أنه كان مطبوعًا على مزاج الدعاة المصلحين الذين يحســون الأخطاء والعيــوب فى أعمــال النــاس وأفكارهم فلا يملكــون الصبر عليها ولا يهدأون أو يزيلوها ويتجردوا ليلهم ونهارهم لتبديلها.

فإن صاحب الدعوة إلى تبديل الأفكار مدفوع إلى الغضب والإغضاب يثــور على مخالفيه ويثيرهــم عليه، ويصدم شــعورهم وتفكيرهم ويتلقىصدماتهم لشــعوره وتفكيره، وليــس فى مقدوره أن يتجنب النضال أو يسكن إلى حياة المسالمة أو الموادعة؛ لأن السكينة وتحريك الأفكار للدفاع والهجوم نقيضان لا يتفقان.

ومــن كان مطبوعًا على مزاج الدعــاة المصلحين فهو منذور لحياة القلق والنضال لاعتقاده أن الإصلاح ضربة لازب وأن الشرور تنتهى على أيدى المصلحين وتنقضــى بانقضاء الزمن الذى هى فيه، وربما تجرد للإصلاح وهو لا يؤمن كل الإيمان بزوال الشرور على يديه أو علــى أيدى المصلحين من بعده، ولكنه يتجرد لجهاده لأنه لا يطيق التوفيق بين حالته وحالة زمنه، ولا يخشــى من الجهاد قلقًا أشــد عليه من قلق الصبر على ما يخالفه ويستثير سخطه على قومه.

أما شكسبير فلم تكن رسالته دعوة يثيرها بل كانت رسالة عمل يؤديه، فإذا صور الدنيا على صورتها فقد وفى عمله كل حقه ورفع المــرآة الصادقة أمام دنياه لتصلح من أمرها ما تريد، وإذا بدا لدنياه أنها راضية عن عيوبها لم يعجلها عن هذا الرضا وتركها على مهل إلى اليوم الذى تتبدل فيه على مهل؛ لأنها لن تدوم على حال.

ولو أنه ســيق اضطرارًا إلى رسالة من رسالات الدعوة لما وجد فى نفســه طبيعة الدعاة، لأنه خلق بطبيعــة الحكيم المتأمل ولم يخلق بطبيعة القلق المناضل المدفــوع إلى تبديل ما يخالفه من أمور زمنه، وفى وســعه أن يحيط من زمنه بخيره وشره ووفاقه وشقاقه، وليس عســيرًا عليه أن يصنع الهوادة مع الحياة على علاتها كيف كانت، وكيف كان.

تتراءى لنا هذه الطبيعة فيه من موقفه بين مذاهب الخلاف فى زمنه، وهو من أكثر العصور مذاهب خلاف.

كان فيــه خــلاف بين الإنســانيين المجددين وبــين المحافظين الجامدين، وكان فيه خلاف بين البابويين والمحتجين على البابوية، وكان فيــه خلاف بــين البابويين فى داخلهــم من المســلمين بالواقع ومن المعارضين القائلين بالرجعة إلى ســنة السلف الأولين، وكان فيه خلاف بين المتطهرين أنصار الحجر والشظف وبين المترخصين أنصار الهوادة والسماحة، وكان فيه خلاف بين المدرسة التجريبية ومدرسة الفلســفة الإغريقية اللاتينية، وكان خلاف العصر فى السياسة بين

شيعة الأسرة الذاهبة وشيعة الأسرة المقبلة أشد من خلاف المختلفين على مذاهب الدين والعلم والفن والأخلاق.

وأين كان شكسبير من كل هذا؟ كان فى حومتها وكانت كلها فى ميزانه بأقدارها وأثقالهـــا، ولم يكن هو ذاهب القرار مختل الوزن بين كفتيها.

هل كان بابويا؟ هل كان بروتستانتيا؟ هل كان منشقا على الكنيسة متبعًا لنحلة من نحل المنشقين عليها؟ هل كان من المتطهرين؟ هل كان من الإنسانيين؟ هل كان على عقيدة أو كان منكرًا لا يؤمن بدين؟

دافيز ريتشـــارد القــس الكاثوليكى المتوفى ســنة ١٥٠٦م يقول عنــه إنه مــات على مذهــب الكنيســة البابوية، ويــدون ذلك فى أوراقه التى وجدت بعد موته ولم يعدها للنشــر أو الدعاية. وفريب Fripp المتوفــى ســنة ١٩٣١م يقول إنه كان مــن الغلاة فى مذهب البروتســتانتية، وهو مؤرخ من مترجمى الشــاعر المتأخرين ولكنه تــولى أمانـــة التراث الشكســبيرى فــى قريته وتخصص فــى إلقاء المحاضــرات عنه فى أندية العواصم الإنجليزية، وشمل بدراســـته تراجم أصدقائه وصحبه وتاريخ ســتراتفورد فى جملته، وهو الذى قال عن الشاعر إنه كان أديبًا موفور الثقافة واسع الاطلاع.

وغــير هذين يقولون غير هــذا وذاك، ولكنهــم يأخذون جميعًا بالقرينة والاســتنتاج من ســيرته وأقواله فى رواياته، ولا يذكرون لنا خبرًا قاطعًا عن مذهب معلوم كان ينتمى إليه.

ومـــن أمثلة هذه القرائن أن القس الذى قام بعمادته كان من غلاة المتشـيعين لمذهب البروتسـتانتية، وأن الشـاعر كانت له صدقات لبيوت من معاهد الإحسان لا تتبع الكنيسة البابوية، ولكن القرائن من هــذا القبيل لا تقطع بانتمائه إلى البروتسـتانتية إلا إذا قطعت بانتماء أبناء سـتراتفورد جميعًا إليها، إذا كان قس كنيستها يقوم بتعميـد جميع أبنائهـا، وكانت صدقات الشـاعر تعم المحتاجين إليها من أبناء القرية ولا تخص فريقًا منها.

وفيمـا عدا هذا القرائن يرى بعـض المعقبين أنه كان بابويا لأنه كان يغمـز أتباع البروتسـتانتية فى رواياتـه الفكاهية ويعرضهم على صورة من صور السـخرية والاسـتخفاف، كمـا يلوح من صورة سـير ناثنائيل فى رواية «عناء الحب الضائع»، وصورة سير أوليفر مارتكسـت فى رواية «كما تهوى» وفى صورة سـير هوج إيفانز فى رواية «زوجات وندسـور المرحات»، وأنه كان يمقت النحل المنشقة كما جاء فى رواية «الليلة الثانية عشرة» إذ يقول: «لست سياسيًا، وإنى لأوثر أن أكون براونيًا على أن أكون فى زمرة الساسة!».

والبراونيون هم أتباع روبرت براون الذى كان ينكر قوامة الأساقفة ويخول كل طائفة متعبدة أن تنشـئ معبدها حيث شاءت وتختار له الوعاظ والقساوسة مستقلين عن أحبار الكنيسة ورؤساء الدولة.

إلا أن الشـاعر كان يلقى على ألسنة أبطاله ما يناسبهم من القول على حسب الموقف أو على حسب مدار الحوار، وقد جعل الملك جون

يقول لبندلف رسول البابا إنه لا يسمح للإيطاليين برئاسة الدين تحت سلطانه المستمد من السماء، ولما قال له فيليب ملك فرنسا: إنك تجدف أيها الأخ! أجابه معرِّضًا بالرشوة والفساد في الوصايا البابوية!

وليس لشكسبير رأى في مذهب المتطهرين ولا في مذهب الإنسانيين على غير هذا المثال الذى يتبعه في إملاء الآراء على ألسنة المتكلمين حسب مواقفهم وأدوارهم في الروايات، وإنما المرجع إلى قرائن الرأى إن كانت فيها قرينة من لهجة الخطاب يحس منها القارئ أنه مفرغ في قالب الموافقة والارتياح أو مفروض على المؤلف بمقتضى المقام على حكم الحوار.

إلا أن قرائن الآراء في كلامه على مذهب المتطهرين ومذهب الإنسانيين لا تحتاج إلى عناء كبير في الموازنة والاستنتاج، لأنها غير مقصورة على المواقف في بعض الروايات، بل هي قرائن مجتمعة نستمدها من عمله كله ومن حياته كلها، ومما قاله على لسان غيره ومما لا حاجة به إلى قول.

فهو لا يذكر المتطهرين بأسمائهم ولا يذكر مذهبهم باسمه، ولكنه ينعتهم بصفاتهم ويومئ إلى مبادئهم وتقاليدهم، ويكاد يستدعيهم إلى المسرح ليطردهم منه على عجل مُشيَّعين بنظرات الضجر والاستخفاف، ولا حاجة إلى هذه الأقوال المعترضة لاستخلاص رأى الشاعر في هذا المذهب وفي غلاة أتباعه من أبناء

عصره، فإن الرجل الذى يدين بمذهب المتطهرين أو ينظر إليه نظرة العطف والإغضاء لا يقضى حياته فى المسرح بين قراءة وتمثيل وتأليف وإدارة وإشراف، ولا يستطيع التوفيق يومًا واحدًا بين رسالة حياته ورسالة القوم الذين يتحرجون من رؤية المسرح بين أسوار المدينة ويُلحقونه بالحانة والماخور وبؤرة الفساد.

ولم يذكر الشاعر مذهب الإنسانيين باسمه، ولكنه ذكر الإنسانية وآدابها فى مواطن متفرقة تنصرف إلى معناها فى مذهب الإنسانيين، وقال فى رواية «هنرى الرابع»: «لو كان لى ألف ولد لعلمتهم أول مبادئ الإنسانية» وتحدث فى رواية «هملت» عن الذين يحاكون الإنسانية محاكاة بغيضة، وقال فى مواقف السخط برواية «عبد الله»: «إننى آوى إلى مسلاخ القرد بديلًا من هذه الإنسانية ...» وجأر بصيحة كهذه الصيحة فى رواية تيمون.

على أن الشاعر فى غنى عن كلام يقوله بلسانه أو لسان غيره لنعلم منه أنه «إنسانى» فى عقيدته وتفكيره، فإنه يؤمن بكل ما احتواه المذهب من عقيدة أو فكرة، إذ آمن بإحياء الفنون والإقبال على الحياة وعرف حدود الطبيعة الإنسانية، وهو من ثم أكبر من مؤمن بالمذهب وأكبر من مستجيب فيه إلى دعوة السابقين إليه: هو ركن من أركان النهضة الإنسانية يقيمها بعمله وسيرته وإن لم يشرحها بحجته وبيانه، وهو ظاهرة من ظواهر هذه النهضة قد أظهره فى عصره ما أظهرها فى عصرها، وتُقاس به كما يقاس بها فى تفصيل مقدماتها وأطوارها.

ونرى أن النهضة الإنسانية تقاس به قبل أن يقاس بها، لأنه يحتويها ولا تحتويه كله في عقيدته وتفكيره، ولأنه يمضى معها إلى حدودها الصالحة ولا يجاوزها إلى ما وراءها، وهو القائل بلسان هملت: «إن فى السماء والأرض أمورًا أعظم مما تحمل به فلسفتك يا هوراشيو»... وهو الذى بلغ بالإنسانية إلى قرارها حيث يتمنى الإنسان أن يستبدل بها مسلاخ القرد، وحيث يصبح الإنسان إنسانًا زائفًا بالمشابهة والمحاكاة.

وهكذا يصدق طبعه فى موقفه من فلسفة الإنسانيين كما صدق طبعه فى مواقفه من مذاهب المتطهرين والبابويين والمنشقين والبروتستانت أو المحتجين على اختلاف الدعاة وأسباب الاجتماع، فهى كلها فى ميزانه بأقدارها وأثقالها، وليس هو بالحائر المضطرب بين كفتيها، وهو يلمح ما يؤخذ عليها ويردد هذه المآخذ بألسنة خصومها، ولا يلزم من ترديدها أن يقرها على علاتها، ولكنه يلقيها بلسان غيره عن علم بها ثم لا يفوته أن يميز بين لبابها وقشورها.

ولم نعلم من كلام شكسبير أنه كان مطلعًا على كتب دينه وأنه يكاد يستظهر أسفار العهدين القديم والجديد بحروفها، ولكننا نعلم هذا من أسلوبه ومن تركيب عباراته لأنه يشبه تركيب الجمل فى نصوص الترجمتين: ترجمة القرن السادس عشر التى ظهرت قبل مولده بخمس سنوات، وترجمة القرن السابع عشر التى ظهرت

قبل وفاته بعشر سنوات، واطلاعه على هذه النصوص اطلاع من يفهم ويحفظ ويضع الشاهد الموافق في مكان الحاجة إليه.

* * *

ونحن إذا قلنا بعد هذه التقديرات إننا نعلم القليل عن عقيدة شكسبير على سبيل اليقين، فقد قلنا الكثير عن طبيعة الرجل وتكون مزاجه، وهما سبب السؤال عن عقيدته يوم كان الناس يقذفون بعقائدهم في وجه من يسأل عنها ومن لا يسأل، وناهيك بزمن كان يتوسط النهضة بمنازعاتها في الدين والعلم والسياسة، ويفتتح الثورة التي ثلت العروش وطاحت برؤوس الملوك في وطنه وإلى جوار وطنه وفي العالم الجديد بين أبناء جلدته ومن عاش معهم من ورثة النهضة والإصلاح.

في ذلك الزمن كان صاحب المعتقد يأخذ بتلابيب الناس ليعلنهم برأيه ويقسرهم عليه، وها هنا رجل يعرف من دعوات زمنه وعيوب أهله ما يجهله الكثيرون ويكتب ما لم يكتبه أحد قبله ولا بعده عن طبائع الناس وحقائق الحياة، ونسأل عن عقيدته فنبحث عنها في طوايا كتبه ولا نعلم منها غير القليل من طريق الظن والتقدير.

لو كان لا يعلم ولا يعمل لأمكن أن يُقَال إنه جاهل لا يدرى ما حوله، ولما احتاج أحد في أمره إلى سؤال.

ولكنه يعلم ويعمل، فإن جهلنا اليقين من عقيدته فليس اليقين من تكوين مزاجه بمجهول: إنه مزاج رجل يعرف رسالته فيعكف عليها، ويفرغ للجد والدأب في أدائها على وجهها.

إنــه رجل يغلب فيــه مزاج الحكيــم المتأمل على مــزاج الثائر الغيــور، وشــفيعه إلى وجدانــه وضميره أنه ينظــر إلى جانب هنا وجانب هناك، وأنه لا يرى بينهما موقع الفصل بين الخير والشــر ولا قضية الحياة والموت في مشكلات الماضي والحاضر، ومن ورائها مشكلات الغد المجهول.

وندع المفاضلة بين المزاجين لموضعها من كتب الأخلاق وعلم السلوك. ونكتفــى هنا بأن نقــول إن الفضل لأحدها على الآخــر لا يطرد على إطلاقــه فى كل قضية وكل آونة. فرب قضية تكون فيها الحكمة جبنًا لا يغتفر، ورب قضية فــى آونة أخرى تكون فيها الحكمة فريضة لا هوادة فيها، ومناط الفصل بين المزاجين فى هذه الســيرة أن نسأل من يطالبون الشاعر بمزاج غير مزاجه ويوجبون عليه حمل السلاح غيورًا ثائرًا: فى أى جانب يريدون منه أن يحمل سلاحه؟

لقد كان موقفه بين الجوانب موقف المؤمن الذى لا تؤويه حظيرة مــن حظائرها، وكان يؤمن بعظمة الله وعظمة هذا الكون الذى تغيب أســراره فى سمائه وأرضه عن فلسفة الحكيم ومعرفة العليم، وكان يأخــذ على كل نحلة من نحل العصر مواضع الهدة فيها، ولا يبرئ إحداها من سوء المغبة ولا ينوط حسن المغبة بسواها، ففى أى جانب منها يحمل سلاحه وإلى أى جانب منها يسدد ذلك السلاح؟

إنه صنع فى حياته ما كان عليه أن يصنعه لو أنه عاد إلى الحياة بعد ثلاثمائة سنة، وهذه المئات الثلاث من دورات الفلك هى مسافة

السبق بين وعى العبقرية الخالد ووعى السالف العابر الذى يغمره غبار المعركة فترميه ضجة هنا وتتلقاه صيحة هناك، وتنقضى حملته ولما ينكشف للمعركة غبار.

* * *

ويبدو أن قوام هذا المزاج الناجح الرضى كان صفة لا يظن لأول وهلة أنها تساعد صاحبها على كسب النجاح والرضا، وهى صفة العزوف.

وغير بعيد أن تكون صفة العزوف قد ساعدته فى حياة الفكر كما ساعدته فى أسباب المعيشة ومعاملة الناس، لأنها يسرت له أن يقف موقف الحيدة بين أبطاله وشخوص رواياته، فاستطاع أن يعطى كل شخص من أولئك الشخوص وجهة النظر التى تناسبه فى الرواية وأن يلقى على لسانه كلامه الذى يطابق تلك الوجهة دون أن يتخلله بكلام المؤلف على حسب تفكيره وشعوره.

والعزوف - كما أسلفنا -صفة لا يظن لأول وهلة أنها تساعد صاحبها على النجاح وكسب رضا الناس، لولا أن العزوف فى نفس متعددة الجوانب غير العزوف فى النفوس الضيقة التى يستوعبها جانبها المحدود فلا تتسع لغيره، إن العزوف فى نفس قادرة على الاشتغال بمختلف الشواغل يلهمها أن تدع الناس وما يعنيهم وتتفرغ لما يعنيها من أعمالها، ومن عزف عن الناس فمن اليسير عليه أن يقول «لا يعنينى» وأن يجعل هذه القولة شعاره فى علاقاته بغيره وسياسته لنفسه، وليس أيسر من كسب رضا الناس بهذا

العزوف، ولا أقرب إلى النجاح ممن يعكف على شأنه ويصدف عن الفضول فى مطالبه وأحواله.

ومهما يكن من أثر هذه الصفة فى نجاحه بين زملائه فلا ريب أنها أكسبته ذلك السمت الرصين الذى كان يضمن له الكرامة فى كل بيئة يتصل بها ويعيش بين ظهرانيها على قدر ورفق فلا تمله ولا تنظر إليه نظرتها إلى المقتحم المتطفل عليها.

وكرامة الطبع هى التى خولته كرامة اللقب؛ لأنهم رأوه فى بيئة الألقاب أهلًا لحلة التشريف التى توجب لصاحبها أن يلقب بلقب السيد أو الجنتلمان، فكان سيدًا بأدبه قبل أن يكون سيدًا بلقبه، وتيسر له أن يدرك اللقب الذى لا يدركه كل من سعى إليه وقد كان المتأدبون من نبلاء عصره يقربونه ويستقبلونه فى مجالسهم بين خاصتهم وعشرائهم، وارتفعت منزلته فى بلاط الملكة اليصابات فشملته برعاية أكبر من رعاية الفنان المستحسن على المسرح، واقترحت عليه تأليف الأدوار التى تحب أن تراها ممثلة على مسرح القصر، ومنها دور فلستاف فى موقف غرام.

ولم يعرف فى تاريخ ملوك الإنجليز أن أحدًا منهم كتب بيده خطاب إعجاب إلى ممثل مؤلف غير شكسبير، فقد كتب له جيمس الأول خطابًا خاصًا لم يعهد إلى أمناء حاشيته أن ينوبوا عنه فى تسطيره، بل سطره بيده، وظل الخطاب محفوظًا إلى سنة ١٨٧٠م ثم ضاع ولم يظهر له أثر بعد ذلك، ولكن الأستاذ هسكث بيرسون Hesketh يروى عن

اللورد بمبروك Pembroke أن جده رآه واطلع عليه، وأن عمة من عماته عاشت إلى سنة ١٩٢٠م رأت الخطاب فى صباها.

وجدير بالملاحظة أن شكسبير لم يحفظ هذا الخطاب، وإنما حفظه سير دافنانت D'Avenant (الذى قيل إنه ابن غير شرعى لشكسبير)، ووردت أول إشارة إليه فى تقديم قصائد الشاعر فى طبعة لنتوت Lintot التى ظهرت سنة ١٧٠٩م نقلا عن الدوق أف بكنجهام.

ويلاحظ كذلك أن الشاعر لم يذكر فى رسائله ولا فى أقواله المحفوظة شيئًا عن حظوته فى البلاط الملكى ولا عن عطف الملكة اليصابات والملك جيمس عليه، ولكننا نعلم ذلك من أبيات للشاعر بن جونسون يتحدث فيها عن بجعة نهر أفون الحلوة التى ترفرف على نهر التاميز وتروق رفرفتها أعين اليصابات وجيمس، وموضع الملاحظة فى سكوت شكسبير عن هذه الأحاديث أنه لا يعنى بالحظوة الملكية ولا بالمكانة المرعية بين علية القوم لأنه يفخر بها فيدل بها على أقرانه، وإنما يطلبها ليصون كرامته ثم لا يبالى متى صينت له هذه الكرامة أن يغض بها من كرامة الآخرين، وليس بالمستغرب من هذا العزوف السليم أن يكسب صاحبه الرضا، لأنه يفل سلاح الحسد ويكسر شوكة الغيرة.

* * *

تلك صورة جلية من تلك الشخصية تخرجها لنا البداهة من الواقع الثابت الذى لا عمل فيه للسماع والرواية، ونعتقد أن مترجم

شكسبير فى حل من قبول السماع والرواية فيما يطابق تلك الصورة البديهية؛ لأن لسان الحال يطابق فيها لسان المقال، وقد يعرض الشك للرواية المسموعة فى جيل بعد جيل الشاعر على ألسنة مجهولة السند متناقضة الخبر، ويضيق مورد الشك فى صفة تمليها البداهة ويؤيدها السماع.

كان أقدم مترجميه أوبرى Aubrey (١٦٢٦ - ١٦٩٧م) قد ولد بعد وفاته بعشر سنين، وكان رحالة طُلَعة يتنقل بين البلدان والأندية ويتلقف النوادر والغرائب من أفواه الثقات وغير الثقات ويسرع إلى تدوينها جزافًا فى دفتره بإسنادها إلى رواتها ممن صادفهم فى حله وترحاله، وكان إذا أولع بترجمة يحبها يتحرى مواطن السؤال عنها ولا يخطئه التوفيق فى اختيار مراجعها، وكان على ولع شديد بسيرة شكسبير فبحث عمن عرفوه أو عرفوا أحدًا من أقرانه وعشرائه، وأجدرهم بالتعويل عليه ابن بيستون Beeston الممثل المشهور الذى كان زميلا لشكسبير فى فرقته وجليسًا له فى أوقات فراغه، وجملة ما رواه عن صفاته وعاداته من هذه المراجع أنه «كان وسيما مليح المنظر، حسن المجالسة جدًا سريع الخاطر جدًا، وديعًا ودودًا ظريف الفكاهة، وكان من عادته أن يزور قريته مرة كل عام فى أيام مقامه بلندن، ومن أصحابه المعدودين توماس شدويل Shadweel الممثل الفكاهى النابغ، وهو يذكره، فيقول إنه خصب الذهن، فياض القريحة، يفوق زملاءه من كتاب المسرحيات

ولم يكن من عادته أن يمحو سطرًا مما يكتبه. ويعقب بن جونسون على ذلك فيقول: وددت لو أنه محا ألف سطر! وستعيش ملهياته ما بقي قارئ يفهم الإنجليزية.

ولم يرد في كلام أوبرى شيء عن عاداته وملاهيه في غير مجالس المسامرة، ولكن سير والتر رالى Raleigh مترجم شكسبير في القرن التاسع عشر يعتمد على مسرحيات شكسبير وعلى الذكريات المنقولة، فيقول عنه إنه كان يشترك في رحلات الصيد ويتقن من هذه الرياضة ملاحقة الطرائد واستخدام البزاة.

ويتوسط بين أوبرى ورالى في الزمن مترجم معجب بالشاعر كان يتولى رعاية الكنيسة بقرية ستراتفورد من سنة ١٦٦٢م إلى سنة ١٦٨١م، ويتتبع أخبار الشاعر من كبراء السن فيها، وذلك هو القس جون وارد Ward جد السيدة سيدون أعظم الممثلات في أدوار شكسبير، وهو يسرد من تلك الأخبار أشتاتًا متفرقة لا يسندها إلى مرجع معروف ويختمها بقوله: «إن شكسبير ودرايتون وبن جونسون اجتمعوا في مجلس طرب وأكثروا من الشرب على ما يظهر؛ لأن شكسبير مات بالحمى التي أصابته بعد ذلك».

وليس الغريب في هذا الخبر أن شكسبير يشرب مع زملائه، فإنه لم يكن بدعًا في عادات العصر بين قومه ولا بين زملائه، ولم يكن من طائفة المتطهرين التي تدين بالحمية في الطعام والشراب، ولكن الغريب أن يفرط في معاقرة الخمر حتى يقضي عليه من

جرائها إذ لا يعقل أن يفرط الرجل فى الشــراب ويفرغ للعمل الذى أتمه فى الكتابة والتمثيل وإدارة المســرح وتدبير شئون الأسرة فى مقامه بلنــدن ومقامه بقريته، وأن يحدث منــه ذلك بعد أن جاوز الخمسين.

ونحســب أن القس جون وارد عجب من أن يقضى الشاعر نحبه فى الثانية والخمســين بغير علة معلومة ولا حادث طــارئ، فعلل موته بإصابة عارضة من حمى الشراب، وما كان للقس أن يعجب لموت بطله قبل علو الســن لــو قابل بين عمره وأعمار إخوتــه وأبنائه، فإنه نبت فــى قوم قصار الأعمار وأحس وطأة الموت وهو فى الثلاثين كما جاء فى موشــحته الثالثة والسبعين، وختم حياة العمل والاغتراب عن موطنه فى نحو الخامسة والأربعين، فإذا كان للشراب أثر فى التعجيل بأجله فلا حاجة إلى الإفراط فيه لتقصير هذا العمل القصير.

* * *

وبعد، فنحن نقنع من الأخبــار والقرائن بهذه الصورة الصغيرة «للإنسان» شكسبير لأننا لم نعثر بصورة له تغنينا عنها، وهى على الجملــة صورة صغيرة مجــردة من الألوان الواضحــة، ولكنها على صغرها ونصول ألوانها صادقة الشــبه واضحة الخطوط، وقد نحصر خطوطها الواضحة فى كلمتين حين نقول إن «الإنســان شكسبير» هو القروى العالمى الذى نفهمه كلما فهمنا العالم الذى عاش فيه والقرية التى نبت منها ولم ينقطع عنها حتى عاد إليها.

فــلا تتم فــى أخلادنا صورة «الإنســان شكســبير» إلا إذا عرفنا أنه عاش فى عالم الكشــوف الــذى تراجعت حوله حدود المجهول فى الأرض والســماء وفــى أغوار الطبيعة الإنســانية، وإن أهم هذه الكشوف لهو هذا الكشف عن طبيعة الإنسان فيما يغنينا من ملكات الرجــل الذى تقوم رســالته على تصوير مئات من الرجال والنســاء يمثلــون الطبائع على خيرها وشــرها، ويتقاربون أو يتباعدون على ضروب من العلاقات قلما تغيب عنها علاقة بين إنسان وإنسان.

ولا تتــم صورة العبقــرى العالمى بغير تلك الخطوط التى ترتســم بها سمات القرية بناحيتها الطبيعية وناحيتها الاجتماعية فى تلك العبقرية الخالدة، فإن القرية هى التى ترســم لنا من صورة شكسبير الإنسان ملامح الســمت والحرص على السمعة وتوجيه خلائق الجد والدأب إلى غايتها فى القرية بين غايات الفن والشهرة، وقد تفسر لنا هذه الخطوط القروية خفايا السنوات المجهولة فنرضى عن تفسيرها؛ حيث يتركنا كل تفسير عداه متطلعين إلى سؤال لا جواب عليه.

فلا لغز فى اختباء شكســبير بضع سنوات يشتغل فيها بالتمثيل منزويًا عن عشــيرته الأولى قبل أن ترتفع عنه معابة الاشتغال بهذه الصناعة، وقبل أن يحمد من أسرته مغبة الانتساب إليها.

ومــا من غرابة فى هذا المســلك تلجئنا إلى طلب التفســير، لأنه المسلك الذى لا مسلك ســواه بين يديه، ولا فكاك منه للفنان المطبوع

الذى ولد قرويًّا ومات قرويًّا ولم تصرفه المدنية ولا العالم عن أحضان الطبيعة فى قريته بين مآلف صباه ومعاهد آله وعشيرته.

فلم يكد يفرغ من حق المدنية والعالم عليه حتى عاد إلى القرية التى أعطته حياته الأولى ليعطيها بقية حياته.

* * *

obeikandl.com